كلية التربية للبنات

قسم التاريخ

الدراسات العليا/ مادة المغرب

أ.د. حَمّـاد فرحان حمادي المحمدي. Prof. Dr.Hammad f Hammadi

محاضرة بعنوان

(بناء مدينة القيروان)

The establishment of the city of Kairouan

– **مرحلة التحرير المنظم لبلاد المغرب العربي** : كانت ولاية عقبة بن نافع الفهري للمغرب العربي سنة 50هـ/670م حداً فاصلاً بين عهدين :

الاول : بدأ بجهود عمرو بن العاص سنة 22هـ/643م وانتهى بولاية معاوية بن حديج السكوني سنة 47هـ/667م وهي الفترة التي أُطلق عليها عصر او فترة الاستكشاف, فرغم الانتصارات التي حققتها القوات العربية حتى ذلك الوقت فإن نتائجها لم تكن لتدوم طويلاً بل كانت تلك النتائج مرهونة بوجود القوات العربية في بلاد المغرب, فإذا ما عادت الى برقة او مصر ارتدُت معظمْ المناطق المحررة عن الولاء والطاعة ولهذا اعتبرت الحملات العسكرية التي توالت على بلاد المغرب مجرّد حملات استطلاعية, واسعة المدى, قد تطول او تقصر مُدَّتها, حسب الاهداف المحدّدة لها .

واختيار عقبة بن نافع لهذه الولاية وفي هذا الوقت بالذات, لم يكن دون معرفة تامة بشخصيته القيادية, وجهوده الحربية على مدى فترة تزيد على الربع قرن من الزمان, ذلك ان دار الخلافة في المشرق, رسمت له خُطَة عمل ترمي الى تحقيق اهداف مركزية تقوم اساساً على تثبيت أقدام العرب في المغرب العربي من خلال تأسيس مدينة عربية إسلامية تكون قاعدة لتجمْع القوات العربية, ومركزاً لانطلاقها وملجأ لها عند الضرورة, وهذا العمل بحد ذاته وسيلة من اجل تحقيق الهدف الاسمى وهو تحرير المغرب العربي من المستعمرين الروم البيزنطيين, ونشر الاسلام .

ولكي يتمكن عقبة من انجاز مهماته وتحقيق أهدافه, زوَّد بعشرة آلاف مقاتل, إضافة الى القوات المرابطة في مدينة برقة, والتي كانت تضم أعداداً كبيرة من المتطوعين البربر الذين حَسُن إسلامهم وتوثقت طاعتهم .

وزحفت هذه القوات الكبيرة باتجاه المغرب, فأعادت إخضاع قفصة وقسطيلية والمناطق الاخرى التي تمّ إخضاعها سنة(46هـ)خلال ولاية معاوية بن حديج, ويبدو ان عقبة بن نافع عاقب اهل هذه المناطق عقاباً صارماً لنكثهم العهد, وخروجهم عن الطاعة .

ومن اقليم قسطيلية زحف عقبة راجعاً إلى اقليم الهضبة الوسطى, وفي قمونية, وقف على جهود سضلفه معاوية بن حديج في بناء معسكر القرن, وبدأ بختيار المكان المناسب لقيام اول مدينة عربية اسلامية. في بلاد المغرب, مشيراً الى ضرورة قيام مثل هذه المدينة بقوله : " إن أفريقية إذا دخلها امام أجابوه الى الاسلام, فإذا خرج منها, رجع من كان أجاب منهم لدين الله الى الكفر, فأرى لكم يا معشر المسلمين ان تتخذوا بها مدينة تكون عزّاً للإسلام إلى آخر الدهر ..." ويكون بها جيش المسلمين وذويهم وأموالهم ليأمنوا من تمردات أهل البلاد وخروجهم عن العطاء.

اختيار موضع مدينة القيروان:

وهكذا شرع عقبة بن نافع ببناء مدينة القيروان سنة (50هـ/670م) في موضع وسط بعيدة عن الساحل كي تكون في مأمن من هجمات الاسطول البيزنطي, وغير متوغلة في العمق خشية من تحركات القبائل البربرية وقريبة من السيخة لتتمكن الابل من الرعي بأمان .

وقد علّق "كودل" على اختيار عقبة هذا الموضع بقوله : " وكان اختيار المكان موفقاً بل بلغ من التوفيق في اختياره أن وَلاة المغرب, ومن خلفهم من الحُكام المستقلين أقاموا بها زماناً طويلاً, ولم ينتقلوا عنها الا حينما اضطرتهم ظروف سياسية جديدة الى ذلك. كما كان موقعها الحربي معروفاً ملحوظ الاهمية, إذ كان الحاكم الذي يتخذ هذا الموضع مركزاً لأعماله, يستطيع ان يرى العدوّ من بعيد ويتحرز من الغارات المفاجئة الكثيرة الحدوث عند البربر, وإذا أراد أن يطاردهم إلى هضابهم وجد الطريق مفتوحة أمامه, إذ كان يستطيع بعد مسير بضع ساعات الوصول الى أعالي الهضاب ... ومن

أعالي الهضاب كان يستطيع الإشراف على ما يجاورها, فيتيسر له حُكمها اذا كانت لديه القوة الكافية لذلك. كذلك كان فرسانه الخفاف قديرين على ان يقوموا بهذا النوع من أعمال الاستطلاع وبالغارات السريعة والحراسة الدائمة " .

وكان موضع المدينة مكاناً كثير الاشجار, ومأوى لأنواع مختلفة من الحيوانات والزواحف, وكان من الطبيعي ان تُقطَّع الاشجار للاستفادة من اخشابها وتُحرق الاعشاب والادغال لتنظيف المكان وتطهيره من الحيوانات المستوطنة فيه .

وحسب طريقة العرب في بناء المدن, فقد ابتدأ ببناء المسجد الجامع ثم دار الامارة, ثم قُسمت الارض المحيطة بهما على المقاتلين الذين اختطوا دُورهم كل على قدرته .

ويبدو ان تحديد القبلة بالشكل الدقيق كانت من الامور التي شغلت عقبة بن نافع وأهتمه لأيام قبل تحديدها, لان ضبط قبلة أول مسجد أقيم للناس في بلاد المغرب العربي من الضرورة بمكان, ولأنه على اساسها تُجدَّد قِبلةُ مساجد البلاد, ولا عبرة بعد ذلك لما يذكره المؤرخين من ان تحديد القبلة كان بناء على كرامة من كرامات عقبة بن نافع, إذ كشفت الدراسات الحديثة بأن محراب مسجد القيروان الذي بناه عقبة ينحرف قليلاً عن الاتجاه الصحيح .

وكانت مدينة القيروان في البداية بسيطة البناء, مادته الآجُر المطبوخ لتَوَفُّر مادة الطين, وعُمرت بمرور الزمن بأنواع الابنية والمنشآت, وشد الناس إليها الرحال فسكنوها من كل مكان, واتسعت الاسواق والمرافق, ودامت حركة البناء فيها فترة تقارب الخمس سنوات حتى اكتملت عمارتها سنة 55هـ/674م, ولأجل حماية المدينة ومرافقها من الغارات المفاجئة فقد لُفِّت عمائر المدينة ومنشآتها بِسور من اللبن والطين ظل قائماً حتى زمن الاغالبة فهدمه زيادة الله, وأقام سوراً مْن التراب .

مساحة المدينة:

وقد اختلف المؤرخون في تقدير مساحة المدينة, فحددها البعض بثلاثة آلاف وستمائة (باع) وحددها اخرون بثلاثة عشر وستمائة (ذراع), ويقول سعد زغلول : " والمساحة الاولى التي تُقدَّر بحوالي (5800 م2) معقولة بالنسبة لخطة الاولى, وإقامة الاسوار, ووسائل الدفاع, أي بالنسبة للمدينة العسكرية, اما المساحة الثانية التي

تُقدر بحوالي (7000 م2) فهي معقولة بالنسبة لمساكن العسكر والقبائل, ومن انضاف اليهم من اهل البلاد, وعلى ذلك يمكن القول ان المدينة العسكرية الاصلية المسورة حيث المسجد الجامع ودار الامارة والذخائر – كان محيطها (3600) باع بينما انتشرت حولها مساكن القبائل والمساجد الخاصة بها في محيط بلغ 13,600 ذراع " .

أهميّة مدينة القيروان:

وكان قيام مدينة القيروان حدثاً هاماً في تاريخ افريقية خاصة والمغرب العربي عامة, لأنها اصبحت نواة لولاية جديدة هي ولاية المغرب العربي, كما كانت مدينة الفسطاط من قبلها نواة لولاية مصر العربية, وحققتِ النتائج التي اريد من بنائها, فأصبحت قاعدة تنطلق منها القوات العربية, ومقراً للولاة, ومسكناً للكثير من القبائل العربية, وحذت بعض القبائل العربية البربرية حذوا إخوانهم المشارقة, فجاوروا المدينة الجديدة, ودخلوا في دعوة الاسلام, وتعلموا اللغة العربية, ووقفوا على اصول الشريعة الاسلامية وما يجب على المسلم من واجبات, وما له من حقوق .

وكان دور القيروان واضحاً وجليّاً في نشر الاسلام والتعريب بين قبائل البربر, فشيوخها من ابناء الصحابة والتابعين كانوا دعاة وخير معين, تمكنوا بعد فترة وجيزة من نقل اهل المغرب العربي من حال الى حال, نقلوهم من حال المعُادي والمتربص بالسلطة العربية, الى صف المشارك في حروب التحرير والفاعل في تقرير السياسة العربية بهدف تحرير البلاد من المستعمرين البيزنطيين .

ولا يخفى بعد هذا ما للآثار المعنوية من اهمية في قيام المدينة, فقد قوي جنان المجاهدين, واطمأنت نفوسهم في الاستقرار والسُكنى, واتخاذ الدور والمساجد فيها, وزادتهم عزيمة وإصراراً لنحير كامل التراب العربي, وطرد الروم وملاحقة فلولهم واجتثاث اصولهم. في الوقت ذاته كان لصدى قيام هذه المدينة آثاره السياسية على الغزاة وحلفائهم, فقد كانت اخبار بنائها تزيد من عوامل الانهيار النفسي لديهم, وتعمّق من هذه الخلافات بين صفوفهم .

وقد عبّر أبن الاثير عن مجمل هذه النتائج بالمقولة الاتية : " ... ودخل كثير من البربر في الاسلام, واتسعت خطة المسلمين, وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان, وأمنوا, واطمأنوا على المقام فثبت الاسلام بها " .

وهكذا قُدَّر لمدينة القيروان ومنذ البداية دَورٌ يشمل النواحي العسكرية, والسياسية, والحضارية, والدينية .

وفي الوقت الذي كان فيه عقبة بن نافع وقواته مشغولين بإنشاء المدينة, كانت السرايا المقاتلة تجوب مناطق عديدة, فيما بين الساحل وعمق بلاد المغرب, لتطهير المناطق المحيطة بإقليم القيروان, ولتستطلع احوال العدوّ البيزنطي .

وبإنهاء عقبة بن نافع مهماته الاساسية سنة (55هـ/675م) ارتأت الخلافة أتباع سياسة جديدة في بلاد المغرب لكسب ولاء القبائل العربية البربرية, ونشر الاسلام والعروبة بين صفوفهم وتقوم هذه السياسة في اساسها على اعتماد الاقناع واللين والمداراة في الدرجة الاولى. ولما كان عقبة بن نافع عسكرياً من الطراز الاول وعنيفاً في سياسته على حد قول معظم المؤرخين, فقد تطلبت المرحلة الجديدة والياً سياسياً يمتلك قدراً عالياً من المرونة دون التفريط بأهداف الدولة المركزية .

لهذا السبب استُدعي عقبة بن نافع الفهري, وأقِرّ مكانه : أبو المهاجر دينار, الذي عُرِف بسياسته المغايرة تماماً لسياسة سلفه, والمصادر تمر مَراً سريعاً على ولاية واعمال ابي المهاجر دينار, ولعل السبب في ذلك يعود الى وقوع ولايته بين ولايتي عقبة بن نافع الاولى والثانية. وعلى اية حال فما ان استقر ابو المهاجر في القيروان حتى تواصلت إليه الاخبار عن قيام نوع من التعاون العسكري بين الروم البيزنطيين وكسيلة بن لمزم زعيم قبائل أوربة البرنسية, حيث بدأوا يعدّون العدة للقيام بأعمال مضادة من شأنها الحد من تقدم القوات العربية ومنعها من التوغل في المغرب العربي, ولكي لا يسمح أبو المهاجر دينار لعدوه بالاستعداد التام, بادر بقيادة القوات العربية سنة .